سعد زهران (٢)

ذات يوم انهمكت فى العمل الحزبى. مضت ساعات الليل الأولى، وقررت أن أواصل وأن أبيت حيث أوجد، واستهوانى التفرغ التام للنضال يوم – اثنين– ثلاثة، أمى قلبت الدنيا ولم تجدنى. أخيرا اقنعنى المسئول (شهدى عطية) أن أعود للبيت . عدت، أغرقتنى أمى بدموعها. نمت ثم استيقظت لأجدها أخفت العكاز والساق الصناعية. ساعتها فقط أدركت أننى معاق– وأضربت عن الطعام أربعة أيام فأعادت لى أمى الساق والعكاز.
سعد زهران (فى حواره معى)

إنها أيام الانطلاق الثورى لليسار، اللجنة الوطنية للعمال – ٢١ فبراير– ٤ مارس وبروز كوادر وزعامات جديدة احتلت مكانة ما فى المجتمع، ومكانة أكبر فى التنظيم. سعد زهران يسجل كالمعتاد ملاحظة مهمة «كانت الانقسامات تعبيرا عن بروز قيادات جديدة ذات ثقل فكرى وجماهيرى وذات احترام كبير وسط القواعد التنظيمية بينما كانت القيادات الاجنبية غارقة فى عزلتها».

وتفجرت الانقسامات وبدأت بتكتل سيف وسليمان تحت اسم «التكتل الثورى» (شهدى وأنور عبد الملك). ويقول سعد «لم أكن أحب أنور عبد الملك ولكننى كنت معجبا اعجابا شديدا بشهدى واندفعت معه بكل قواى. الكثيرون أدانوا التكتل، أما أنا فقد اعتبرته مجرد فرز طبيعى بين كوادر جماهيرية لاتقود التنظيم، وقيادات معزولة عن الجماهير، والحقيقة أننى فى البداية كنت اتصور أن شهدى وعبد المعبود الجبيلى هما زعيما التنظيم، فلما علمت أن ثمة قيادات أخرى فوقهما، وانهما تمردا على هذه القيادات تمردت معهما. وأقرر صادقا ان انحيازى كان عاطفيا فقد قرأت الوثائق والوثائق المضادة ولم أفهم شيئا. وكان هذا حال الكثيرين».

ويمضى سعد زهران «انشغلت بعض الوقت بالدراسة والامتحانات لأعود فوجد كل شيء قد تبعثر، شهدى سجن، المعتقلات فتحت، عشرات من الرفاق قبض عليهم، الانقسامات التى كان التكتل الثورى بدايتها تكاثرت بصورة مرضية، ولم أجد حولى سوى مجموعة صغيرة من الرفاق (مصطفى طيبة- داود عزيز- لمعى يوسف- طوسون كيرلس) وبدأنا فى الالتقاء معا.. لنحاول أن نبدأ من جديد. كنت ألح عليهم فى كل لقاء انه لا حركة ثورية دون رؤية واضحة محددة تحدد معالم الحاضر بوضوح، وترسم طريق المستقبل بوضوح أيضا. وكنت أكرر فى كل مرة أن لينين لكى يبدأ الثورة درس وبعمق واقع روسيا وتأمل فى مستقبلها وأصدر كتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» وأنه لا أمل لحركة ثورية فى مصر دون كتاب كهذا. وفى هذه الأثناء عاد د. فؤاد مرسى إلى مصر بعد أن حصل على الدكتوراه من فرنسا، وكان يتصور أنه سيعود ليجد فى مصر تنظيما قويا ومتماسكا لكنه وجد مجرد مجموعات صغيرة ومتناثرة ومحبطة. أما أنا فكنت أهيم على وجهى ولا أعرف ماذا أفعل».

المصادفة وحدها لعبت دورها. مصطفى طيبة سافر إلى الاسكندرية فى رحلة متعلقة بوظيفته فى وزارة الحربية وهناك التقى بالمصادفة رفيقا قديما كان مبعثرا هو أيضا وقال له أن ثمة «دكتور» عاد من البعثة فى فرنسا ولديه أفكار جديدة. وذهب مصطفى طيبة لمقابلته اعجب مصطفى بالدكتور وعاد ليبلغ سعد الذى أسرع إلى الإسكندرية، ويقول عن المقابلة «وجدت فى الدكتور ما كنت أبحث عنه، حتى الكتاب الذى حلمت به طويلا كان جاهزا وكان عنوانه بالضبط كما أردت «تطور الرأسمالية وصراع الطبقات فى مصر»، وعدت من الإسكندرية وأنا فى قمة الانبهار وبين يدى نسخة من الكنز، وعلى الفور بدأت بنفسى فى نسخ ثلاث نسخ بالكربون وبدأت أبشر بهذا «الانجيل» الجديد. وتجمع معنا بعض المبعثرين والحيارى وأسسنا تنظيم «الحزب الشيوعى المصرى» الذى اشتهر بين المنظمات الأخرى باسم «الراية» انتسابا إلى نشرة أنيقة ومطبوعة بالمطبعة وتصدر اسبوعيا كل خميس باسم «راية الشعب».

ثم يسجل سعد زهران مسألتين. الأولى أن الرفيق خالد (الدكتور فؤاد مرسى) كرس حملة عداء قاسية ضد منظمة حدتو باعتبارها الخصم الرئيسى. والثانية أنهم ارسلوه فى رحلة إلى باريس وحملوه كل الوثائق الجديدة وأفهموه أن الرفاق الفرنسيين سوف

يناقشون معه الوثائق ويطرحون أفكارهم فيها. وأن د. اسماعيل صبرى عبد الله سوف يرتب له الأمر. لكن الرفاق الفرنسيين لم يقابلوه وحتى تذكرة العودة رفضوا أن يدبروها له، فعاد ساخطا. ومدركا أن الأممية رفضت أن تزج بنفسها فى بحر الصراعات التنظيمية المصرية.

وكانت قيادة الراية من أربعة رفاق د. فؤاد مرسى (السكرتير العام) واتفق الجميع على الحفاظ على أمنه وعدم السماح لأحد بأن يتعرف عليه وداود عزيز (الذى لا ينسى سعد زهران فى كل حديث عنه أن يسجل احترامه له) ومصطفى طيبة وسعد زهران. وفى هذه الأثناء اسهم سعد فى اضراب المعلمين عام١٩٥١ وفى الاضراب عن تصحيح امتحانات الثانوية العامة وفى خضم الاضراب تعرف على مدرسة تغلى بالثورية اسمها سميعة وتزوجها. وفى كتاباته العديدة يقدم سعد زهران تصورا بائسا لمجمل الحركة الشيوعية المصرية فهم مجرد بضع مئات لا تشعر بهم مصر. اما ثورة يوليو فقد انفرد سعد زهران بتسميتها «نكبة يوليو» ويقول وبعد رحيل عبد الناصر بسنوات «إن عدائى لنكبة يوليو سيظل قائما أبدا ومهما تحدثتم عن ايجابياتها فوحشيتها وهمجيتها وتدميرها للشخصية المصرية يلغى أى دور ايجابى لها. صحيح أنها سجنتنى تسع سنوات لكن ذلك لا علاقة له بتقييمى لها فأنا اعتقد اننى لو كنت فى الاتحاد السوفيتى لكانوا اعدمونى تسع مرات فأنا اؤمن أن تدمير حرية الإنسان هو تدمير لكل شىء». وهو كعادته يضع لنفسه معايير مختلفة «فوحدة الشيوعيين تمت بإرادة ناصرية، ثم انقسمت بإرادة ناصرية»، ويبقى سعد زهران كما هو، كثيرون تقربوا من الناصرية أو حتى بالغوا فى تمجيدها، أما هو فقد ظل على خصومته ليوليو وكل تاريخها. فقرر الرحيل بعيدا عنها وبقى فى الجزائر ١٦ عاما وكان ينوى أن يبقى ابدا لكنهم طلبوا منه أن يرحل. فغادر غربته هناك ليأتى إلى غربة فى أرض وطنه ولعله كان يتمثل قول حافظ ابراهيم

فما أنت يا مصر دار الاديب

ولا انت بالبلد الطيب

ولكن حافظ ابراهيم اعتذر لمصر عن هذه القصيدة بألف قصيدة أخرى. أما سعد زهران فلم يعتذر بعد، رغم أنه أحب مصر أكثر من كثيرين.